

دور الفن عند أبي نصر الفارابي.

The role of art at Abou Nasr El-Farabiد. محمد بوداني¹¹جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله، الجزائر. mohamed.boudani@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03/22 تاريخ القبول: 2022/03/28 تاريخ النشر: 2022/05/10

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الرد على النظرة الدونية للفن، إذ نحاول من خلالها إبراز وجهة نظر الفارابي من الفن بشكل عام، ودوره بشكل خاص، وهي نظرة يرمي من ورائها هذا المفكر إلى رد الاعتبار للفن من خلال تبيان دوره في الحياة اليومية للفرد والمجتمع بعدما شاع أن غرضه المتعة والترفيه أو التسلية لا غير. وبالفعل فقد كان على رأس النتائج المتوصل إليها في ختام هذه الدراسة أن مفكرنا الفارابي أحسن الذود عن الفن لما جعل منه وسيلة أخلاقية ومعرفية تثقيفية. كلمات مفتاحية: الفن، الفارابي، المحاكاة، الأخلاق، المعرفة.

Abstract :

This study aims to response to the inferiority view of art. so this study try to highlight the view of Al-FARABI to the art in general and his role in particulier.It is a view through which this philosopher attempts to rehabilitate art by demonstrating his role in the daily life of the individual and sositety.

Indeed Al- FARABI was able to defend the art of what made him an ethical and cognitive medium . which is used today by some television channels for children that aim to cultivate and educate the generation.

Keywords : Art ; Farabi ; Simulation ; Ethics ; Knowledge.

المؤلف المرسل: د. محمد بوداني

1. مقدمة:

لقد اهتم الإنسان بالفن منذ زمن بعيد، حيث اعتبره المرآة التي يرى الآخرون من خلالها، والوجه الذي يعرفه بالآخرين، وبشكل عام فهو صورة صادقة لحياة البشر، وفي شأنه نشأت مفاهيم عديدة تعكس وجهات نظر مختلفة للعديد من المفكرين، تحمل كل نظرة اتجاه ذلك المفكر، ولقد ترجمت جملة هذه التصورات في مجموعة من النظريات، وكل نظرية تشير إلى اتجاه معين، ومن دون شك، تعتبر نظرية المحاكاة من أقدم وأهم النظريات. والمحاكاة بوجه عام حسب ما ورد في المعجم الفلسفي لجميل صالبيبا هي التقليد أو المشابهة في القول، أو الفعل أو غيرهما. أما نظرية التقليد أو المحاكاة في علم الجمال بحسب ما ما جاء أيضا في المعجم الفلسفي لنفس المؤلف فهي القول: إن مبدأ جميع الفنون تقليد للطبيعة. وكان أفلاطون أول من نادى بها، وقد تولدت نظريته للفن من خلال السياق العام لنظرية المثل، وقد شاركه تلميذه أرسطو في نفس النظرية ولكنه اختلف معه في الكثير من المسائل، ويعد الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابي الفارابي (260-339هـ) (874-950م) من القائلين بهذه النظرية أيضا، ومن هنا نتساءل هل يمكن القول أن الفارابي كان مجرد ناقل لأراء

الفيلسوفين أفلاطون و أرسطو على غرار ما قيل عن التفكير الفلسفي الإسلامي بصفة عامة أم أنه تناول نظرية المحاكاة بثوب جديد لم يعرف عند الفيلسوفين؟ أو بصيغة أخرى هل كان الفارابي مجددا أم مقلدا؟ وما هو دور الفن عنده؟

أما عن الهدف من هذا العمل فيمكن في محاولة إستنتاج التراث العربي والإسلامي، وإبراز نظرة المعلم الثاني للفن في الوقت الذي كانت بعض الرؤى تنظر إلى الفن بعيون غير راضية جاعلة الغاية من الفن المتعة والتسلية لا غير. حيث تحاول هذه الدراسة علاج تصور هذا الفيلسوف للفن باعتباره صاحب بناء فلسفي شامل خاص به، وأن هذا البناء الفلسفي ليس قائما كما هو مشهور على التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية أو المزج بينهما، بل هو قائم على النظر العقلي الخالص الذي دفعه إلى انتهاج سبيل البرهان المنطقي من أجل الوصول إلى المعرفة اليقينية.

ومن هذا المنطلق لن نجعل من تصور الفارابي للفن مجرد شرح أو تلخيص للنصوص الأرسطية وإنما نجعل منه تفسيرا يحمل وجهة نظر صاحبه. مع التذكير أن هذه الدراسة لا تقف عند رصد تأثير اليونانيين في هذا الفيلسوف أو تأثر هذا الأخير بهم .

2. طبيعة الفن عند الفارابي :

الفن عند الفارابي محاكاة ولكنه محاكاة العالم الداخلي للإنسان، وموضوعات الفن جميع الموجودات التي يمكن أن يأتي بها هذا الإنسان، ويؤكد الفارابي في تلخيصه لكتاب الشعر لأرسطو، على أن الأقاويل التي تتصف بالشعرية هي التي " توقع في ذهن السامعين المحاكي للشيء" (الفارابي، 1973، ص150)، والمحاكي للشيء في تعبير الفارابي هو صورته وتشكيله الفني، الذي هو جوهر عملية الخلق الفني، عند المبدع، وهذا ما يجعل المحاكاة مرادفا للخلق الفني الذي هو فعالية مشتركة بين جميع الفنون الممكنة، ويوضح الفارابي تعميمه لمبدأ المحاكاة على فنون أخرى يجمعها وصف الشعرية بقوله: " فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، وقد تكون بقول، فالذي بفعل ضربان أحدهما أن يحاكي الإنسان بيده شيئا ما، مثل ما يعمل تمثالا يحاكي به إنسانا بعينه، أو شيئا غير ذلك، أو يفعل فعلا يحاكي به إنسانا ما أو غير ذلك. والمحاكاة بقول، هو أن يؤلف القول الذي يصنعه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول، وهو أن يجعل القول دالا على أمور تحاكي ذلك الشيء" (الفارابي، 1973، ص12). والذي يفهم من قول الفارابي، هو أن الفنون كلها تلتقي حول مبدأ المحاكاة، وتختلف بعد ذلك في وسائل وأدوات هذه المحاكاة، فالاختلاف إذن بحسب تعبير الفارابي يكون في مادة الصناعة، بينما يكون الاتفاق في صورتها وأفعالها وأغراضها، على أن الصورة هي نفسها المحاكاة وتلمس هنا تأثر الفارابي بالمعلم الأول أرسطو في قوله بالهيولى والصورة، أما الأفعال فهي وسائل تبليغ الأثر الفني إلى المتلقي، ويتعلق الأمر بالظلال والأضواء بالنسبة للرسم أو التزييق بلفظ الفارابي والتشبيه والإستعارة والمجاز للقول الشعري، والأنغام والإيقاعات بأوزانها وأشكالها للموسيقى والرقص، وأما الأغراض فهي تحريك الخيال والحواس، بما تنقله إليها الأعمال المبدعة.

وهكذا فاعتماد الشعر على المحاكاة يجعل منه شبيها لفنون أخرى حيث يشترك معها في كونها محاكاة. فالنحت والتمثيل والرسم تقوم على المحاكاة غير أنها تتميز عن بعضها البعض وعن الشعر في الأداة التي يستخدمها كل فن أي وسيلة المحاكاة التي يعتمدها كل واحد من الفنون. وهو ما أدركه الفارابي لما راح يفرق بين ما يسميه المحاكاة بفعل والمحاكاة بقول.

وإذا كانت المحاكاة هي مبدأ كل خلق أو إبداع فني كما هو واضح من كلام الفارابي، فهل ذلك يعني أن الفن يتوقف عند حد استنساخ الواقع ونقل معطياته؟

الواقع أن ما تنطق به النصوص أو أقوال الفارابي تفيد أن المحاكاة لا تعني أبدا نقل ما في الواقع أو استنساخ معطياته، ذلك أن ما يؤكد عليه الفارابي هو أن ما تعكسه المحاكاة إنما يقف عند حد المشابهة والمماثلة. لأن هدفها فني، وهو

دور الفن عند الفارابي

ما عبر عنه بقوله: " إن تخيل في الأمر الذي فيه المخاطبة، حالا ما، أو شيئا أفضل أو أخص، وذلك إما جمالا، أو قبحا، أو جلالة أو هوانا، أو غير ذلك مما يشاكل كل هذه" (الفارابي، 1948، ص 67). وكمثال على ذلك فإن العمل الشعري بما هو محاكاة، ليست غايته هي استنساخ ما في الواقع وتقليد معطياته بهدف تحقيق المطابقة بينها وبين العمل الشعري والفني. وهذا معناه أن الأعمال الفنية غير ملزمة بنقل ما في الواقع والإتيان بما يطابقه، وذلك أن طبيعة المحاكاة حسب الفارابي هي خلق وتخيل وتشكيل للموضوع الفني، على أساس أن غرض المبدع كما يعبر عن ذلك الفارابي بقوله: "أن يوقع في ذهن السامعين والمتلقين المحاكي للشيء بدلا من الشيء نفسه" (الفارابي، 1973، ص 151). وهنا نلاحظ أن المحاكاة عند الفارابي تتخذ معنى التخيل مما يعني أنها من عمل المخيلة، وهو ما أشار إليه ابن سينا في قسم النفس من كتاب الشفاء عندما جعل صناعة الشعر تعتمد على المخيلة .

هذا ويربط الفارابي المحاكاة بمجال التشكيل ويلج في سياقات متعددة على المقابلة بين الشيء في أصله الوجودي وبين ما يستحيل إليه محاكاة دون تناسي الشق الغائي (جمعي، 1999، ص 29)، ففي مجال الشعر مثلا يقول: "إن الأقاويل الشعرية هي التي شأنها أن تؤلف من أشياء محاكية للأمر الذي فيه القول...ويلتمس القول المؤلف مما يحاكي الشيء تخييل ذلك الشيء" (الفارابي، 1973، ص 150). ثم يقرب بين الشعر والرسم فيقول: " إن فعلهما، جميعا التشبيه وغرضهما إيقاع المحاكيات في أوهام الناس وحواسهم" (الفارابي، 1973، ص 150)، ثم بين الشعر والنحت إذ يرى أن هناك تماثل في المحاكاة بين الأقاويل الشعرية والنحت وهو ما يستشف من قوله السابق: "إن الأقاويل الشعرية هي التي شأنها أن تؤلف من أشياء محاكية للأمر الذي فيه القول، فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، وقد تكون بقول، فالذي بفعل ضربان أحدهما أن يحاكي الإنسان بيده شيئا ما، مثل ما يعمل تمثالا يحاكي به إنسانا بعينه، أو شيئا غير ذلك" (الفارابي، 1973، ص 150).

السؤال المطروح إذا كان الفارابي أوسع الفلاسفة المسلمين اطلاعا على الفلسفة اليونانية، وإذا كان أفلاطون أول القائلين بنظرية المحاكاة فهل كان الفارابي محاكيا لأفلاطون، مجرد ناقل لأفكاره وتصورات أم أنه تناول نظرية المحاكاة بثوب جديد لم يعرف عند أفلاطون ؟

إن الفن عند أفلاطون يمثل الطور الثالث، بحيث أن الوجود عنده ثلاث مراتب، المرتبة الأولى هي مرتبة المثل ثم المرتبة الثانية هي مرتبة الوجود الذي يحاكي عالم المثل وهي بمثابة تقليد لحقائق موجودة في الوجود الأول، وأخيرا المرتبة الثالثة وهي محاكاة لموجودات العالم الذي يقع في المرتبة الثانية، مما يعني أن الفنان يحاكي الوجود الثاني وبالتالي فمحاكاته هي محاكاة المحاكاة فمثلا الجمال الحقيقي موجود في عالم المثل، وحياة الإنسان وأفعاله هي ظل، والفنان يحاكي هذا الظل وبالتالي الفن هو ظل الظل أو إنعكاس لإنعكاس، وعلى هذا الأساس عرفت المحاكاة عنده على أنها ضرب من اللعب والتقليد مما ينجم عنه أن كل فن يقوم عليها هو فن فاسد. بمعنى أنه لكي يكون للفن قيمة ودور ينبغي أن يكون محاكاة لعالم المثل فيأتي بالحقيقة من مصدرها. وهذا غير ممكن لأن عالم المثل الذي تحدث عنه أفلاطون لا يوجد إلا في ذهنه هو. أما المحاكاة عند مفكرنا الفارابي هي مبدأ كل إبداع وخلق فني هذا من جهة، ومن جانب آخر يسند الفارابي للفن دور كبير في تعليم الجمهور وتهذيبه كما سيتضح فيما سيأتي من هذه الدراسة.

3. الدور الأخلاقي للفن :

يهدف الفن إلى دفع الناس لفعل الفضائل والتخلي بها والإبتعاد عن فعل الرذائل، إذ يصور الفضائل في صورة جميلة ليجذبهم نحوها ويصور لهم الرذائل في صورة قبيحة لينفرهم منها. فالشعر مثلا عند الفارابي ستة أصناف ثلاثة منها

محمودة، وثلاثة مذمومة، أي أن الأقاويل الشعرية عنده منها ما يمكن وصفه بالخير ومنها ما يمكن وصفه بالشر. والغاية حسبه هي الحث على الأخلاق والفضائل مما يدل أن غاية الشعر تكريس الفضائل المؤدية إلى السعادة (كليب، 1997 ص120).

وتفصيل ذلك أن الأصناف الثلاثة المحمودة من الشعر، أحدها يقصد به إصلاح القوة الناطقة، وأن تسدد أفعالها أو فكرها نحو السعادة وتخيل الأمور الإلهية والخيرات وجودة تخيل الفضائل وتحسينها وتقبيح الشرور وتخسيسها، والثاني يقصد به تعديل العوارض المنسوبة إلى القوة من عوارض النفس ويكسر منها إلى تصير إلى الاعتدال وتنحط عن الإفراط وهذه العوارض مثل الغضب وعزة النفس والقسوة والشره وأشباه ذلك، ويسدد أصحابها في الخيرات دون الشرور، والثالث يقصد به إصلاح و تعديل العوارض المنسوبة إلى الضعف واللين من عوارض النفس وهي الشهوات واللذات الخسيسة و الخوف والجزع والغم والحياء والرحمة ورقة النفس وأشباه ذلك ليكسر ويحط من إفراطها إلى أن تصير إلى الاعتدال ويسدد نحو استعمالها في الخيرات دون الشرور (الفارابي، 1971، ص64)، بمعنى أن مهمة الشعر الأخلاقية تتمثل في تحقيق الاعتدال وتجنب الإفراط، مستلهما هنا الفارابي الفكرة الإسلامية الرامية إلى تجنب الإفراط في الشهوات وكبح النفس عن الغضب. وفكرة التوسط والاعتدال هذه تمثل أسلوبا تربويا تواجه به عواطف النفس وانفعالاتها بغية إحداث التوازن فيها (جمعي، 1999، ص133).

ويرى الفارابي أيضا أن العدول عن المبتذل من الكلام يكون من شأن الأقاويل الشعرية والخطبية وما جرى مجراها (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص11). وتجدر الإشارة هنا أن الشعر عند الفارابي لا يستخدم في أمور الجد فحسب بل يتعداها إلى أمور اللعب أيضا، وهو ما عبر عنه بقوله: "والأقاويل الشعرية منها ما يستعمل في الأمور التي هي جد، ومنها ما شأنها أن تستعمل في أصناف اللعب، وأمور الجد التي هي جميع الأشياء النافعة في الوصول إلى أكمل المقصودات الإنسانية، وذلك هو السعادة القصوى" (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص47). فالشعر إذن حسب الفارابي نافع من الناحية الأخلاقية إذ يساهم في الإرتقاء بالإنسان عن طريق التأثير في سلوكه بتوجيه الوجهة التي تسمح له بتحقيق الغاية القصوى من وجوده وهي السعادة التي هي أكمل المقصودات البشرية، وفي مقابل هذه الأمور الجادة هناك غرض آخر يستخدم من أجله الشعر وهو اللعب الذي يهدف إلى تحقيق المتعة.

مع الإشارة أن الفارابي يفضل الصنف الذي يفيد مع اللذة شيئا آخر أي الفائدة عن الصنف الذي يفيد لذة الحواس فقط، ذلك أن الصنف الأول يقدم منفعة مباشرة تتمثل في تقويم سلوك الإنسان وتهذيبه إلى غاية الوصول به إلى درجة الكمال مما يجعله فردا نافعا في المجتمع الفاضل (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص1180). وفكرة تقويم السلوك هذه وتهذيبه تشبه إلى بعيد تصور ابن مسكويه لوظيفة الشعر التربوية حيث يجعل للشعر دورا تربويا في تكوين النشء وذلك لكونه يعين على نقل القيم الأخلاقية التي تسدد ما ينشأ عليه الطفل من إغواج في السلوك يقول ابن مسكويه: "إن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال، إما كلها أو أكثرها يكون كذوبا، ويخبر ويحكي ما لم يسمعه، ولم يره ويكون حسودا سرورا تماما لجوجا، ذا فضول، أضر شيء بنفسه وبكل أمر يلابسه. ثم لا يزال به التأديب والسنن والتجارب حتى ينتقل في أحوال بعد أحوال. فلذلك ينبغي أن يأخذ ما دام طفلا بما ذكرناه ونذكره. ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعودده بالأدب، حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها" (ابن مسكويه، 1317هـ، ص47).

دور الفن عند الفارابي

يوجي هذا النص أن ابن مسكويه ينظر نظرة أخلاقية للشعر في تربية الأطفال الصغار وتعليمهم فيؤكد بذلك أهمية الشعر، ولكنه من جهة أخرى يحذر من خطورته كونه قد يتسبب في انحرافهم وإفسادهم ولهذا يدعو إلى الإبتعاد عن أشعار النسيب لأنها تحث على الفسوق فيقول: "... ويحذر النظر في الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدا" (ابن مسكويه، 1317هـ، ص48).

وتجدر الإشارة إلى أن الموقف الذي يقفه الفارابي تجاه الأقاويل الشعرية ينطبق على الفنون الأخرى التي تشارك الشعر من حيث كونها محاكاة، كمثل الموسيقى والنحت والتصوير، يقول الفارابي: " والألحان بالجملة صنفان على مثال ما عليه كثير من سائر المحسوسات الأخر المركبة، مثل المبصرات والتمائيل والتزاويق، فمنها ما ألف ليلحق الحواس منه لذة فقط، من غير أن يوقع في النفس شيئا آخر، ومنها ما ألف ليفيد مع اللذة شيئا آخر من تخيلات أو انفعالات. ويكون بها محاكيات أخر" (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص1180). مما يدل أن الفنون عند الفارابي إما تكون هادفة إلى تحقيق اللذة أو تحقيق ما هو نافع. ولكن الفارابي يفصل بين الوظيفتين: الفائدة التي تنجم عن أمور الجد أو اللعب أو اللذة فيفضل كما أشرنا من قبل الفنون التي تفيد مع اللذة .

أما بخصوص الموسيقى، يمجّد الفارابي الألحان الكاملة التي لا تتبع انفعالات النفس لأنها تحقق غايات أخلاقية لما فيه خير للنفس البشرية. وهي بهذا تتساوى وغايات الحكمة والعلوم يقول الفارابي في هذا الشأن: " ولما كان كثير من الهيئات والأخلاق والأفعال تابعة لانفعالات وللخيلات الواقعة فيها، على ما تبين في الصناعة المدنية، صارت الألحان الكاملة نافعة في إفادة الهيئات والأخلاق، ونافعة في أن تبعث السامعين على الأفعال المطلوبة منهم، وليس إنما هي نافعة في هذه وحدها، لكن وفي البعثة على اقتناء سائر الخيرات النفسانية مثل الحكمة والعلوم" (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص1180).

يلاحظ في هذا المقام أن الفارابي على غرار الفلاسفة المسلمين لا ينكر جانب اللذة الجمالية التي يحدثها الإتقان في الصنعة في كل الفنون وعليه فهو لا ينكر المتعة التي تحصل جراء الفنون ولكنه يضيف إليها دور آخر وهو المساهمة في دفع الناس إلى الخير والتحلي به، فهو يدعو لتسخير الفن لإرشاد البشر إلى الفضائل والأخلاق وتحاشي الإنغماس في الشهوات. وهكذا إذن يمكن القول أن الفارابي كان يسعى إلى تسخير كل صور الفن إلى خدمة الأخلاق ولهذا وجدناه يربط بين الفن والخير والفضيلة، إذ عرّف الخير الإرادي بأنه الجميل والشر الإرادي بأنه قبيح، والخير الإرادي يحدث بواسطة القوى الناطقة النظرية، والتي يشعر من خلالها الإنسان بالسعادة (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص73). فهناك إذن رباط وثيق بين الفن والخير والفضيلة بحسب الفارابي وهو ما يعبر عنه بقوله: " إن الذي له فضيلة يستنبط بها الأنفع والأجمل، لأجل غاية ما فضالة ، هي خير" (الفارابي، 1354هـ، ص40). لكننا نقول قد يكون الفن جميلا ولا يحقق مآربا أخلاقية وهو ما حذر منه ابن مسكويه عند حديثه عن الشعر كما أشرنا إليه من قبل، وما قيل عن هذا الفن قد ينطبق على الفنون الأخرى.

4. الدور المعرفي للفن :

لقد استبعد أفلاطون الفن من حقل الفلسفة واعتبره مقابلا لها بل ويشكل خطرا عليها، باعتبار الفن عنده ينتهي إلى مجال الخطابة، فهو يخدع الحواس وبالتالي فهو يبعدها عن الحقيقة، إذ أن الفنان أو الشاعر بعيد عن الحقيقة بثلاث مراتب، فعندما ينقل شيئا ما فإن ما ينقله لا يعدو أن يكون نسخة مشوهة لمثال الحقيقة. فالشاعر بالنسبة لأفلاطون يحيد عن الحقيقة ويدعي بلوغها في حين أنه لا يمتلك أية معرفة حقيقية. لذلك فهو مختلف مع الفيلسوف، ويمكن أن يعيقه عن القيام بوظيفته. لكون الشاعر يشبه في محاكاته من راح يلهو بمرآة ويرى صور الأشياء في هذه المرآة، ومعلوم أن صور الأشياء في المرآة ليس هي حقيقة الأشياء بعينها، فالشعر كذلك أقوال تخيل الحقيقة ولكنها ليس الحقيقة (أفلاطون، بدون سنة

الطبع، ص264). ولو أن الدكتور احسان عباس يرى أن هذا لا يعني الحظ من قيمة الشعر وإنما تمييزه عن القول البرهاني (عباس، 2006، ص217-218) فإننا نقول: لماذا استبعد أفلاطون الشعراء من جمهوريته؟.

ولكن الفارابي بخلاف أفلاطون يذهب إلى أن الفن بإمكانه تثقيف العامة من الناس وذلك بتقريبه للمعارف لكونه يقوم بتبسيط المفاهيم المجردة، لضرورتها في تحقيق السعادة لأن الغاية من وجود الإنسان حسب الفارابي أن يبلغ السعادة القصوى (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص47)، ولتحقيق هذه الغاية يجب أن يعمل الإنسان ما يوصله إلى نيل السعادة، ما دامت الإمكانيات الطبيعية للتعليم تختلف من إنسان إلى آخر، مما يجعل طرق التعليم تختلف من جماعة إلى أخرى تبعاً لاختلاف طبائعهم وقدرات أفرادها الفردية.

أما الكيفية التي يحصل بها إدراك العلوم لدى البشر، فإن الفارابي يردّها إلى أن يعقل (الشيء) ذاته أو يتخيل بمثاله الذي يحاكيه (الفارابي، 1354هـ، ص40)، وتعقل الأشياء ذاتها من اختصاص الفلاسفة أما أكثرية الناس العامة فتحتاج أن تخيل لهم بأشياء تحاكيها (الفارابي، دون سنة الطبع، ص56). والمحاكاة كما سبق ذكره هي جوهر الفنون والأساس الذي تقوم عليه. وهنا يظهر أن للفن دور كبير في تقريب فهم الأشياء التي يصعب تعلمها كما هي في الوجود، للجمهور والعامة. وذلك لقدرته على السيطرة على عقولهم من خلال المتعة التي يتركها في نفس المتلقي (بوساحة، 1997، ص128).

ولما كانت النفس الإنسانية تجد في الإتقان ما يلائم طبيعتها فهي تتلذذ وتستمتع بما جاء فيه من جمال، وهنا يفضل الفارابي الجمال الفني على الجمال الطبيعي لما في الأول من معرفة وأفكار، وهو ما لا نجده في الجمال الطبيعي، الأمر الذي يسمح لنا بالقول أن الجمال الطبيعي للمتعة والجمال الفني للمتعة والمعرفة، والمتعة التي تحصل من المعرفة أفضل من أي متعة أخرى. ويصبح الجميل هو الذي يحث على القيام بالأعمال الجادة التي تعود بالنفع والفائدة على الإنسان ومن ثمّ تحصيل سعادته (الفارابي، 1354هـ، ص21).

وفيما يخص الطريقة التي يتم بها نقل المعلومات والمبادئ العامة نقلاً فنياً حتى يتمكن العامة من إدراكها والتعرف عليها فهي: تتمثل في وضع أمثلة تحاكي العلوم النظرية التي تمت معرفتها معرفة يقينية لتقريب هذه العلوم إلى عقول العامة من الناس مع مراعاة الاختلافات الثقافية بين أمة وأخرى بحيث تتم هذه المحاكاة كما يقول بالأمر التي هي: "أعرف عندهم وقد يكون الأعراف عند كل واحد منهم غير الأعراف عند الآخر" (الفارابي، 1892، ص70)، أي من الممكن أن تحاكي تلك العلوم لأمة بغير المثالات التي تحاكيها عند أمة أخرى، وهذا معناه يجب مراعاة الخصوصيات الثقافية للأمم، والبحث في ثقافتها عما يساعد على نقل هذه العلوم إلى العامة نقلاً أفضل (بوساحة، 1997، ص130).

ويضيف الفارابي: "يمكن أن تحاكي الأشياء لكل طائفة ولكل أمة بغير الأمور التي يحاكيها للطائفة الأخرى فلذلك قد تكون أمم ومدن فاضلة تختلف مللهم وإن كانوا كلهم يؤمنون سعادة بعينها" (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص56). ومن هنا نستشف أن الفارابي يقدر دور الفنون في تقريب المعرفة للجمهور لقدرتها على إيصال المعارف والمعلومات إلى الأغلبية، ويعتقد أن "أكثر الناس الذين يؤمنون السعادة إنما يؤمنونها متخيلة لا متصورة، وكذلك المبادئ سبيلها أن تتخيل وهتدى بها وتُعظم وتُجل، إنما يتقبلها أكثر الناس وهي متخيلة عندهم لا متصورة" (الفارابي، بدون سنة الطبع، ص65).

دور الفن عند الفارابي

ما يلاحظ هنا أن الفارابي تفتن إلى طريقة في التعليم، يقرها علم النفس اليوم في المجال التربوي وتمثل في إيصال وترسيخ المعارف بالرسومات، أو حفظ معلومات عن طريق غنائها وفق لحن معين وهو ما تعتمده بعض القنوات التلفزيونية الخاصة بالأطفال في هذا العصر.

هذا ونشير إلى أن أغلب الفلاسفة المسلمين وعلى رأسهم ابن سينا دافعوا عن الفنون الصادقة الجادة التي تخدم المجتمع وبينوا أن الغاية من المحاكاة ليست المتعة أو اللعب بل الهدف منها هي أمور الجد (ابن سينا، 1973، ص 179). ولعل أبرز أمور الجد تعليم الناس الذين لا قدرة لهم على تعلم الأشياء والحقائق كما هي عليه في الوجود. ذلك أن المتعة التي تحققها المحاكاة تجعل الأفكار والمعاني تقع في النفس أفضل موقع وتصبح المتعة في هذا المقام وسيلة من وسائل جذب العامة إلى العلم والمعرفة يقول ابن سينا: "وللمحاكاة التي في الإنسان فائدة، وذلك في الإشارة التي تحاكي بها المعاني فتقوم مقام التعليم وحتى أن الإشارة إذا اقترنت بالعبارة أوقعت المعنى في النفس إيقاعا جليا وذلك لأن النفس تنبسط وتتلاذ بالمحاكاة فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها الأمر أفضل موقع" (ابن سينا، 1973، ص 171). ولا تتوقف وظيفة المحاكاة عند هذا الحد بل تتعداه إلى وظيفة أخرى كونها تجعل المتلقي يقف مع الموضوع المحاكي أو ضده جراء ما تنطوي عليه المحاكاة من تحسين أو تقبيح.

5- دور الموسيقى عند الفارابي :

لقد اهتم الفارابي بالموسيقى اهتماما فاق نظرائه من الفلاسفة المسلمين، بحيث يُذكر أنه اخترع الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون وأنه كان يلعب به حتى يستولي على سامعيه فيضحكهم أو يبكيهم (صاليبا، 1997، ص 45). كما وضع كتابا في الموسيقى سماه كتاب الموسيقى الكبير، وهو الكتاب الذي اهتم به الباحثون اهتماما كبيرا، فعد من أهم كتب الموسيقى في التراث العربي الإسلامي، ولأنه يضم معلومات قيمة تتناول جوانب الموسيقى العربية. وقد اطلق الفارابي على الموسيقى إسم الصناعة وعرفها بقوله: "هي الصناعة التي تشمل على الألحان وما بها تلتئم وما بها تصير أكمل وأجود" (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، ص 49).

نشير في هذا المقام أن الفارابي يطلق الإسم نفسه على الفنون الجميلة على غرار فن الرقص وفن الكتابة وحتى المنطق، والحقيقة أن هذه التسمية ليست علامة مسجلة باسم الفارابي بل استخدمها غيره من الفلاسفة والمفكرين المسلمين، وأدللن عن ذلك من أن أبا هلال العسكري يطلق على كتابه في النثر والشعر إسم "الصناعتين"، أما الكندي فسمى مؤلفه في الموسيقى "صناعة التأليف". مما يدل أن مصطلح الصناعة يشمل كل الفنون عند الكثير من الفلاسفة والمفكرين المسلمين.

ولقد كانت عناية الفارابي متميزة بما يتعلق بالموسيقى من مهام، يقول في هذا الشأن: "فالألحان بالجملة منها ما ألف ليلحق بالحواس منه لذة فقط من غير أن يوقع في النفس شيئا آخر، ومنها ما ألف ليفيد النفس مع اللذة شيئا آخر من تخيلات أو انفعالات، ويكون بها محاكيات أمور أخرى، الصنف الأول قليل الغناء والنافع منها هو الصنف الثاني وهي الألحان الكاملة" (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، 1170). ويربط الفارابي بين الشعر والموسيقى بحيث أن الألحان عنده أربعة منها ما يفيد السامع اللذادة وناق المسموع ويكسب اللحن بهاء وزينة، ومنها ما يوقع في النفس تخيلات ومنها ما يكسب الإنسان انفعالات النفس مثل الرضى والسخط والرحمة والقساوة والخوف والحزن وما جانس ذلك، والرابع هو الذي يكسب الإنسان جودة الفهم لما يدل عليه الأقاويل التي قرنت حروفها بنغم الألحان (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، 1171).

فضلا عن هذا بإمكان الموسيقى أن تنسي الإنسان تعبهُ اليومي الناتج عن كده في كسب قوته، لكونها تلغي إحساسه بالزمان، كون الزمان هو الذي ترتبط به الحركة والتعب ينتج عنها، ولأن فطرة الإنسان تدعوه للتعبير عن أحواله وأن ينشد راحته ، مما يجعل من الموسيقى موافقة للطبيعة البشرية.

وبالرغم هذا التنوع في مهام الموسيقى فإنها محكومة إما بغاية جمالية تتمثل فيما تحققه من امتاع من جراء صفاء الصوت وتناسب الإيقاع وعذوبة الألحان، وأما ما تحققه من غايات نفعية يجسدها ما تترجمه في الذوات من أحاسيس وانفعالات أو ما تعضد به الأقاويل التي تقرن بها. وعن فائدة فن الموسيقى يصرح الفارابي قائلا: " صارت الألحان الكاملة نافعة في إفادة الهيئات والأخلاق ونافعة في أن تبعث السامعين على الأفعال المطلوبة منهم، وباعثة إلى اقتناء سائر الخيرات النفسانية مثل الحكمة والعلوم" (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، 1180).

ولقد فضلَ الفارابي الموسيقى على جميع أنواع الفنون الأخرى كالرقص والتمثيل، أي الفنون التي وجدت لإثارة اللذة فقط دون أن تحدث شيئا آخر في النفس. وتفضيله للموسيقى راجع لكونها بالإضافة إلى إحداثها لذة فلها تأثير كبير على انفعالات النفس مثل الرضى والسخط والرحمة والخوف. وكذلك قدرتها على حصول تخيل النفس لأشياء تستعمل فيها الأقاويل الشعرية التي تخيل فيها الأخلاق والأفعال المحمودة ، ولذلك اعتبر الفارابي الألحان الجميلة هي التي تحقق الغايات الثلاثة. ويقصد بها اللذة، و فيما يوقع في النفس من تخيلات، وما يكسب الإنسان انفعالات النفس وشيئها، وعلى هذا الأساس ربط الفارابي بين الجمال والأخلاق بصفة خاصة، والفن والأخلاق بصفة عامة. وهذا بالإستناد إلى أن جمال الألحان الموسيقية يتوقف على مدى التأثير وتسخيرها لعمل الخير والأعمال الفاضلة حيث الأخلاق الجميلة والسعادة.

والألحان حسب تأثيرها في النفس تنقسم إلى ألحان تنسب إلى قوة النفس مثل العداوة والقساوة، ومنها ما ينسب إلى ضعف النفس مثل الخوف والرحمة ، ومنها ما ينسب إلى المختلط من هذين وهو المتوسط وتدعى الألحان الإستقرارية التي تبعث في النفس الإستقرار والهدوء، وقد أكد الفارابي على قدرة الإنسان على التمييز بين الجيد والردئ، والمتلائم وغير المتلائم من الألحان وذلك من خلال تدريب الأذن على سماع أنواع الألحان. وهذه القدرة حسبه قد تكون فطرية وقد تكون مكتسبة. وقد تنعدم هذه القدرة لدى البعض من الناس (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، 49-50). والألحان التامة عنده مثل الأغذية الطبيعية، أما ما لا تحتمله قدرة الإنسان من الأصوات فهو ليس طبيعيا مثل الأصوات الحادة، وبعض الألحان الطبيعية تستخدم كعلاج لبعض الأمراض النفسية وبعض الألحان تستخدم بمنزلة السموم مثل الأصوات المهلكة أو المصممة، وهي الأصوات التي تستخدم في الحروب لإحداث الرعب في صفوف الأعداء (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، 75-76).

أما الفنون التي تدخل ضمن صنعة الموسيقى فتتمثل في صناعة الدفوف والصنوج والطبول وصناعة الرقص، وغايتها جميعا إحداث اللذة. أما الغناء فقد جعله الفارابي في المرتبة الأولى في الكمال إذ فيه تتم أكمل الألحان، وسماه نغم الحلو، وتأتي بعده أصناف الفنون الأخرى ويرجع الفارابي نشأة الألحان الغنائية في الإنسان إلى غريزة هذا الأخير ومنها الهيئة الشعرية المركوزة فيه منذ تكوينه، ومنها الغريزة الحيوانية التي يحدث بها عند حال من أحوالها اللذيذة والمؤذية ومنها حب الإنسان الراحة بعد التعب. ولقد انتقد الفارابي الفيتاغوريين لما اعتقدوا بأن دورة الأفلاك والكواكب نغمات تأليفية وذلك أن العلم الطبيعي أثبت أن حركة الأفلاك والكواكب لايمكن أن تحدث أصواتا (الفارابي، بدون تاريخ سنة الطبع، ص 78...).

نتهي في الأخير إلى نتيجة مفادها أن نظرة الفارابي للفن تختلف كثيرا عن نظرة الفلاسفة اليونان ومنهم أفلاطون وأرسطو أو الحكيمين على حد تعبيره ، وحتى وإن كان يتفق معهما في اعتبار الفن في طبيعته محاكاة، فإنه لا يوافق أفلاطون عندما يعتبر هذه المحاكاة ضرب من اللعب والتقليد وبالتالي فساد الفنون التي تقوم عليها، والعالم الذي استمد منه أفلاطون نظرياته بما فيها نظريته الفنية لا وجود له في قاموس الفارابي، وفي سياق اقتراب نظرتهم للمحاكاة مع نظرة أرسطو، نقول أن فحص الآراء و معاينة مرجعياتها بدقة يكشف تباعدهما، لكون أرسطو يعتبر المحاكاة الوسيلة التي يتوقف عليها فهمنا للمبدعات الفنية لأنها تنقل لنا بصدق المعطيات الواقعية في حين يتجاوز الفارابي ذلك ويدعو إلى تدخل العقل لضبط المخيلة التي قد تذهب بعيدا فيما تحاكيه، إذ تحاكي ما هو صادق وما هو كاذب وهنا نجد الفارابي مجددا لا مقلدا، له تصوره الفلسفي الخاص به على الرغم من كونه من أكبر شراح أرسطو، هذا التصور جعله يحدد في أحيان كثيرة عن المعلم الأول أرسطو وغيره من الفلاسفة اليونان. وهذا ما يسمح لنا بالقول أن الفارابي لم يكن مجرد شارح لأفلاطون أو أرسطو أو حاملا ناقلا للتراث اليوناني بصفة عامة ونظرتهم للفن بصفة خاصة.

ومن جهة أخرى يرد الفارابي جهل قيمة الفن في المجتمع إلى تعلق الجمهور في تعاطيه الفنون بما من شأنه أن يطرب ويلذ دون الوعي بالجوانب الجادة من خلال معادلتها باللعب المجرد من كل جد، وهنا يكمن مصدر الأحكام القاسية التي قومت الفن (جمعي، 1999، ص146). يقول الفارابي مبينا نوازع طالبي اللذة في الفنون فيرى أنهم: "صاروا يطلبون من الأقاويل الشعرية ما شأنها أن تستعمل في اللعب وكذلك من الألحان التي تقرن بها، وإنما يطلبون منها ما كان شأنها أن تزين أوتحاكي أو تعين على تنفيذ المقصود بهذا الصنف من الأقاويل الشعرية فقط، فظن إذ لم يعلم أن في أكثر الأمر من الألحان غير هذه، أن المقصود بها كلها هذا المقصود فكادت لذلك أن تزول وتخس، وقاربت أن تأتي كثير من الشرائع ناهية عنها"¹ (الفارابي، دون تاريخ سنة الطبع، ص1187) ، ما يعني أن ربط الفن بالمتعة فقط هو ما جعل البعض من علماء الدين من المسلمين القدامى ينظرون إليه بأعين غير راضية، ولكن أقرانهم من علماء الدين المعاصرين ومنهم محمد عبده يقرون أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من وسائل العلم بعد التحقق من أنه لا خطر على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل. ومن كل هذا نستطيع القول أن الفارابي حاول تصحيح الرؤية المشوهة للفن.

لكن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى أن التقدم الكبير الذي وقع بعد الحضارة الإسلامية، وخاصة التطور الحاصل في عصرنا هذا، الذي أصبحت فيه جل الفلسفات تنظر إلى الفن على أنه نشاط منفصل عن القيم الأخلاقية أو المعرفية فلم تعد هذه الفلسفات تنظر إلى هذا النشاط على أنه وسيلة لتحقيق مآرب اجتماعية ولا أدلن على ذلك من أن الكثير من الأعمال الفنية في عصرنا هذا تتعارض مع القيم الأخلاقية والاجتماعية ومع ذلك لم تفقد قيمتها الجمالية.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أبو علي ابن سينا، (1975)، النفس من كتاب الشفاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- 2- أبو علي ابن سينا، (1973)، فن الشعر من كتاب الشفاء تحقيق عبدالرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- 3- أبو علي ابن مسكويه، (1317هـ)، تهذيب الأخلاق، مطبعة الترقى، مصر.
- 4- أبو نصر الفارابي، (1948)، إحصاء العلوم، دار الفكر العربي القاهرة، مصر.
- 5- أبو نصر الفارابي، (1892)، آراء أهل المدينة الفاضلة، مطبعة ليدن.
- 6- أبو نصر الفارابي، (1964)، السياسات المدنية، المطبعة الكاثوليكية بيروت، لبنان.
- 7- أبو نصر الفارابي، (1354هـ)، تحصيل السعادة، حيدرآباد الدكن، الهند.
- 8- أبو نصر الفارابي، (1971)، فصول منتزعة، دار المشرق، بيروت، لبنان.
- 9- أبو نصر الفارابي، (بدون سنة النشر)، كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبدالمالك خشبة، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان.
- 10- أبو نصر الفارابي، (1973)، مقالة في قوانين صناعة الشعراء من كتاب فن الشعر لأرسطو، دار الثقافة بيروت، لبنان.
- 11- إحسان عباس، تاريخ النقد العربي عند العرب، (2006)، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، فلسطين.
- 12- الأخضر جمعي، (1999)، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 13- أفلاطون، (2004)، الجمهورية، ترجمة ودراسة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، مصر.
- 14- بوساحة عمر، (1997)، الدور المعرفي للفن في الجمالية العربية، مجلة دراسات فلسفية، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، الجزائر، العدد 3، ص 128 و130.
- 15- جميل صالبيبا، (1997)، محاضرات في الفلسفة العربية من أفلاطون إلى ابن سينا، دار الأندلس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- 16- سعد الدين كليب، (1997)، البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا.